الشعر السوفياتي عبر نصف قرن

بقلم الدكتور ميشال سليمان

قبل التحدث عن الشعر السوفياتي المعاصر ، لا بد لنا من الالتفات لحظة الى الوراء ، نلقي نظرة عجلى على المنابع الاصلية التي تفجرت منها فنون شعرية ، ونثرية ، وموسيقية كان لها في اوروبا وفي العالم ، دوي الاعصار المارد الذي ينفي الركود .

- ١ -

لقد بدأت جذور الشعر الروسي تتمدد خلال القرن الثالث عشر . وكان ما هو مكتوب منها يومذاك ، مقتصرا على الاناشيد الدينية. اما الاغاني والاشعار الشفهية ، فقد كانت جد منتشرة في الطبقات الاجتماعية الروسية القديمة ، وفي بلاطات القياصرة . وكانت الفوارق بين ذلك الشعر المكتوب وبين ما يردد شفهيا ، تحمل طابعا اقرب الى المهنة الخاصة منه الى الطابع الاجتماعي الذي خلق فيما بعد شروط العلمية والفنى في الفنون الشعبية الروسية عامة .

وقد ظلت الحال بالنسبة للشعر على هذه الوتيرة ، حتى القرن السابع عشر ، الذي جاء المجتمع الروسي بالهزات الاجتماعية التي زلزلت اسس الحياة الروسية ، وقلقلت الحواجز الصلبة التي كانت قائمة بين مختلف طبقات المجتمع ، وفي الثقافة ايضا ، وخلعت ابواب البلد الكبير المغلقة ، وفتحتها على الثقافة الاوروبية لينفذ منها فولتير، وروسو، وشكسبير ، وغوته وغيرهم ...

لقد كانت هذه الهزات الاجتماعية ايذانا للتفتح الفني والثقافي الذي ازدهر في روسيا، خلال القرن الثامن عشر ، فاطلع شعراء ، وادباء ، ومفكرين كبارا ، امثال : ميخائيل لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) والكسندر راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢) والكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) وميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١) ونيقولا نيكراسوف (١٨٢١ - ١٨٧٧) وفلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) وغيرهم ممن اصبحوا يشكلون اليوم التراث الكلاسيكي الروسي على صعيد الادب والشعر والموسيقى،والرسم، والنحت .

وما يهمنا في هذه الدراسة هو جذور الشعر الروسي الجديد ، التي تفتقت عنها تربة الابداع الفني المتمثلة بحركة الشعراء « الديسمبريين » الروس عام ١٨٢٥ مشيرة بطلوعها الى عبقرية رمزية بوشكين ، وتيوتشيف ، ومن دار في فلكهما فيما بعد ، انتقالا الى مرحلة الزعازع الكبرى في تاريخ المجتمع الروسي ، ابتداء من اواخر القرن التاسع عشر ، حتى ثورة اوكتوبر سنة ١٩١٧

والحق ، ان المرحلة القصيرة الممتدة بين مطلع القرن العشرين ، وبين حدوث الثورة الاشتراكية ، كانت مرحلة تفاعل ، وتردد ، وترقب معطاء ، لمعت فيها اسماء كبيرة ، جاءت ترسي في اعقاب الحدث العظيم،اسس الادب والشعر الروسي ، الذي اتحدث روافده الكثيرة في نهر الفن السوفياتي الكبير .

ففي تلك المرحلة ، كانت الرمزية الجو الوحيد الذي يفزع اليه الشعراء الاحرار ، كلما رغبوا في التعبير عما في نفوسهم المضطرمة من حقد دفين على السلطة القيصرية التي كانت يومذاك تسوق حرية السواد الاعظم من الناس بعصي العسف وسياط الطغيان .

كان الشاعر فلاديمير سولوفييف يومذاك (١٨٥٣ - ١٩٠٠) ينشر القصائد التي عدت بحق جذر الرمزية الروسية الحديثة . والى جانبه كان ثمة شعراء كبار امثال فاليري بريوزوف (١٨٧٣ - ١٩٢٤) واندري بللي (١٨٨٠ - ١٩٣٤) الذي كان له الفضل الكبير في نقل الرمزية الفرنسية الى الاوساط الثقافية الروسية . وقد وجد انتاج هؤلاء الشعراء قمته في الشاعر الكبير الكسندر بلوك ، امام الرمزية في الشعر الروسي الجديد .

لقد كانت الحياة في روسيا ، خلال مستهل القرن العشرين ، متلبدة الجو بالنذر المستشرفة احداثا ماردة . وكان الشاعر الروسي التعبير الاتم عن لواعج الانسان المتفتح على حقائق مصيرية قابلة . ولهذا كان لا بد للشاعر الكسندر بلوك ، وهو المعطى الشعري الاكبر في هذه المرحلة ، من ان يلج باب الرمزية ، ليلقي على الحياة نظرة واقعية مندثرة بغلالة من الجمالية المثالية . ولهذا كانت تتردد في شعره صور الزنزانة،والسجن، والنوافذ المغلقة على ضجيج العالم . وفي رائعته المسماة « روض البلابل » التي نشرها اثناء الحرب العالمية الاولى ، يصف الشاعر روضا عجيبا ، بقرب بحر تسوره جدران عالية، اما خرير الامواج، وانين الحياة ، فلا يصل منها شيء الى هذه الصومعة التي لا يرن فيها سوى صوت البلابل ، وتفوح من ارجائها رائحة ورد عطرة .

ولم يكن الروض السحري ما يتوق اليه الشاعر ، وانما مغادرته هي التي كانت تأخذ بمجامع احساسه ، بدليل ان بطل القصيدة يفتح النافذة على مصراعيها ، ويسمع هدير البحر يرتفع « ممزقا النوم المستحب » ، فيستيقظ على الحياة الضاجة ، راغبا في ان يكون رجلا بين الرجال . فتمزق اشواك الورود ثيابه محاولة ايقافه ، لكنها تعجز عن ثنيه عن بغيته . وعندما يركض نحو البحر ، يخيل اليه انه يخرج من سجن كبير .

ولم يكن بطل القصة الشعرية هذه،الكسندر بلوك وحسب ، وانما كان الشعب الروسي، والفن الروسي الذي تضطرم في نفسه رغبة ماردة في مغادرة روض المتارف الفردية ، والركض نحو معترك الحياة ، نحو الزعازع والعواصف الاجتماعية الشاقة في وجه التاريخ منعطفات جديدة .

وقد خيل يومذاك لبعض الدارسين الغربيين امثال مدام « سوفي لافيت » ان بلوك كان مغلقا على نفسه لا يرى ما يحيط به . ولكن الشاعر كان صريحا في التعبير عن منحاه اذ قال : « ليس ثمة قطيعة بين ما هو شخصي وبين ما هو عام في الرؤية الشعرية». ولهذا كان امينا على تقاليد الشعراء الثوريين

الديموقراطيين الروس ، الذين كانوا يولون اشكال اشعارهم العناية نفسها التي يولونها للمواضيع . وقد اخذ يتحرر شيئا فشيئا من عزلته ، ليركب اجنحة الحياة ، منحدرا الى الواقع بكل ما فيه من زلازل وعواصف. وشاهدنا قصيدته : « الاثنا عشر » التي تشكل اثرا شعريا تأمليا ، تمتزج فيه الموسيقى الشعرية بنغم الثورة الجديد .

وتوفي الكسندر بلوك عام ١٩٢١ . وقد عكست قصيدته هذه مرحلة سنوات الثورة الاشتراكية ، التي اطلق عليها الشاعر اسم : « مرحلة الهجوم والعاصفة ». ولكن «العاصفة» ليست كل شيء ، كما ان « الهجوم » ايضا ليس كل ما في الحياة من جوانب بناءة . صحيح ان ثورة اوكتوبر سنة ١٩١٧ قضت بالموت على النظام القيصري القديم ، الا انها فتحت صفحة جديدة في تاريخ روسيا . فالمجتمع الجديد يتطلب عملا يوميا جاهدا . و « العاصفة » التي اشار اليها بلوك كانت تشير بدورها الى بدايات بناء ، وتطور في الاقتصاد الوطني ، والنضال ضد الامية ، ونشر الكتب ، ورفع مستوى العلوم، ومساواة المرأة ، الخ... وكل هذه المسائل الملحة كانت بدورها تشن « الهجوم » الذي اشار اليه الشاعر ولم يوضحه ، وكانت بالتالي تقض مضاجع الشعراء الذين لم يألفوا مثل هذا التحول في الواقع وفي مداركهم الشعرية ، وقد خلق لهم مواضيع جديدة وحملهم على الغوص في غليانها ، ثم مد اليد الى مادتها الخشنة حينا ، والناعمة حينا آخر ، ثم مزجها جميعا في عملية صياغة لبنة جديدة ، على نحو ما فعل الشاعر الكبير فلاديمير ماياكوفسكي ، الذي كان يجاهر في القول بأن « الاشعار والثورة متحدان في رأسه بتوافق تام » .

وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشعر الروسي ، هي مرحلة الشخصية الفنية المواجهة خطرين في وقت واحد ، خطر الاضمحلال من جراء حرب التدخل التي شنت على الدولة الاشتراكية الوليد ، وخطر البيروقراطية التي اوشكت ان تسود هذه الدولة ايضا . ولهذا كان الشاعر في مأزق يوجب بالضرورة وجود شاعر يوفق في مجابهة الخطرين معا ، فكان ماياكوفسكي .

وفيما كان النقاد الغربيون يعتبرون الكسندر بلوك شاعراً رمزيا متشائما احيانا ، كانوا يعتبرون ماياكوفسكي شاعر دعاية ، واثارة وتهريج .

والواقع ان ماياكوفسكي كان شاعرا قبل كل شيء ، غنى الثورة الاشتراكية بشعر غنائي جديد الايقاع ، جديد الصورة ، جديد الجرس ، مستخدما قوالب خارقة الدلالة ، متجررة النغم ، تصفع المخيلة للوهلة الاولى.

وقد حدد ماياكوفسكي مهمة الشاعر الجديد

بقوله : « نحن ايضا واقعيون . ولكننا لسنا مشدودين الى الخضرة ، ومخاطمنا في التراب » . وهو في احدى قصائده يقول :

« اتعلمون
ان استخراج الراديوم
وكتابة قصيدة
سواء بسواء .
يكدح المرء سنة
ليحصل على غرام واحد من المعدن .
ومن اجل كلمة واحدة
يقلب المرء
الف طن
من معدن الكلام » .

ويقول في قصيدة اخرى :

« هاتوا ، اذن ، بيتا من الشعر
يقوى على الاستمرار مئة عام
بيتا لا يذهب بددا
مثل استار الدخان
بيتا يرن
لكي يفتخر به قائله
امام الزمن
امام الجمهورية
امام الحبيبة ! »

ولقد كانت لماياكوفسكي علاقة وثيقة بجماعة « المستقبليين » . وقد عانى من هذه المدرسة في مستهل حياته الشعرية . لكنه عشية الثورة الاشتراكية ، بدأ ينحرف عنهم، ويعود الى منابع الشعر الروسي الاصيلة التي تدفقت من صدور شعراء كبار امثال بوشكين ، ونيكراسوف الذي كان ماياكوفسكي يعتبره « اله الحقد والالم » . وفي تلك الفترة بالذات نظم الشاعر قصيدتيه الشهيرتين : « حرب وسلم » و « اجيبوا » وعبر فيهما باسلوبه الخاص عن احتجاجه الحاقد على تحويل العمال الى طعام للمدافع لكي تملأ بالذهب جيوب الرأسماليين .

ولم تظهر عبقرية ماياكوفسكي جلية الا عقب الثورة الاشتراكية . وعندئذ راح الشاعر يسهم بشعره في بناء هذا العالم الجديد ، بكل ما في عبقريته الشعرية من عمق انساني، وبكل طاقاته النقدية الجارحة ، مهاجما رتابة الحياة الجديدة ، ومحاولا افهام الطبقات الكادحة افكار العالم الاشتراكي وجمالاته الموعودة . وقد وفق كمجدد عبر تمكنه من تضمين شعره بصفاء كلي ودقة فائقة ،المحتوى التاريخي الجديد .

وكان ماياكوفسكي مخضابا على رغم قصر عمره (توفي منتحرا في ١٤ نيسان ١٩٣٠) واعظم اثاره هي قصائده : « ١٥٠ مليونا » نظمها عام ١٩٢٠ . وقصيدته « فلاديمير لينين » نظمها عام ١٩٢٤ . وقصيدته « خروشو » (جميل) ، نظمها عام ١٩٢٧ . وقصيدته « جوازي السوفياتي » نظمها عام ١٩٢٩ . ومسرحيتان هما : « البق » و « الحمامات » ، وقد فضح فيهما لاول مرة في تاريخ الشعر الروسي ، روح البورجوازية والبيروقراطية ، وبين كم هي ضارة رواسب الماضي الاسود في نضال الشعب السوفياتي من اجل مستقبل مشرق .

اما براعة ماياكوفسكي في تطوير الانغام الشعرية ، فهي خارقة في تنسيقها التفاعيل والقوافي ، وهي بهذا عصية على الترجمة . وهذا ما يظهر في قصيدته «جوازي السوفياتي» انموذج من شعره (١) :

جوازي السوفياتي ... لماياكوفسكي

« نهش الذئب
انهش
اخلاق مآمير الدواوين
واحترامي للتفويضات
اقل ما يكون .
اني الى الشيطان نفسه
ادفع دونما رأفة
بكل قرطاس ذي تمغة حمراء
اما هذا ...
على مدى صف طويل
من غرف وعربات
يقف الآمير باحتشام
يجمعون الجوازات
فاسلم انا
دفتري الاحمر اللون
فارى ازاء صنف من الجوازات
شفاها تنفرج باسمة
وازاء صنف اخر
تبدو علائم احتقار .
هم يتسلمون مثلا

(١) نقل هذه القصيدة الى العربية الاستاذ رئيف خوري .

بأحترام،
من عربة نوم
جواز الاسد البريطاني
وتندحرج عينا الفتى الطيب
توشكان ان تشبها البزرة الصغيرة
ساعة
ينحنون الى اقصى ما يستطيع البشر انحناء
فيتسلمون
كأنما يتناولون بخشيشا
جواز رجل اميركي .
وازاء الجواز البولوني
تتراجأ عيونهم تشجج صدورهم
بفدامة بوليسية بكماء
فدامة الفيلة
ويتساءلون : من اين هؤلاء ؟
وما هذه الاصطلاحات الجغرافية الجديدة ؟
ثم بدون ان يديروا
رؤوسهم التي تشبه رؤوس الملفوف
وقد خبأوا عواطفهم
في الطبقات التحتية
يتناولون بلا رأفة
جوازات الاسوجيين
وبعض نروجيين ، شيوخ .
ثم على بغتة
كأنما تخلعت احناكهم
يوشك هؤلاء الخواجات
ان يجأروا جئيرا
هؤلاء الخواجات الرسميون انفسهم
يتناولون
جواز سفري ذي الجلدة الحمراء !
هاكم
كأنه قنبلة
هاكم كأنه قنفذ
كأنه موسى مسنونة الحدين
هاكم كأنه حية خشخاشة
ضخمة طويلة
لها على الاقل
عشرون نابا
مشحونة سما !
فتلتمع عينا الحمال
ببريق ذي مغزى
(احمل لك امتعتك بلا مقابل
يا صديقي ...)
فينظر الدرك نظرة تحري
الى الحمال
وينظر الحمال الى الدرك .
ترى بأية غبطة
كان ذلك الدركي
يشتهي
لو يعلقني ويجلدني حتى اهتري
لانني
امسك بيدي
جوازي السوفياتي الاحمر
نلزه المطرقة
يخوشه المنجل !
نهش الذئب
انهش
اخلاق مآمير الدواوين
واحترامي للتفويضات
اقل ما يكون
اني الى الشيطان نفسه
ادفع دونما رأفة
بكل قرطاس ذي تمغة حمراء
اما هذا ...
اني اخرج
من جيوب بنطلوني الواسعة
شيئا يساوي
شحنة لا تقدر بثمن
كما تعلمون
اقرأوا هذا
وليأكلكم الحسد
انا مواطن
الاتحاد السوفياتي الاشتراكي .

— ٢ —

وقد كانت لمحاولات مایاكوفسكي الجريئة في عالم الايقاع والتجديد انعكاسات على اكثرية الشعراء الذين عاصروا الشاعر ، وطلعوا في اعقابه ، بحيث امكن القول بوجود « المدرسة المایاكوفسكية » في الشعر السوفياتي ، التي عملت على تجديد الشعر من كل جمالية متقهقرة ومن كل رتابة، وجاهدت بالتالي ، لتوسيع حلقة المواضيع والمسائل التي يعالجها الشعراء الى حد تناولها المواضيع النثرية ، ومعالجتها بلغة شعرية متطورة التركيب النحوي والبياني ، والطاقات التعريفية .

وسواء اكان الشعراء السوفياتيون اليوم من مدرسة مایاكوفسكي او من سواها ، فحسب الشاعر انه اعلن في وجوههم جميعا انه عدو القعود والجمود والقبول بالامر الواقع والاساليب التقريرية . فهو يقول :

« الشاعر عندنا
يأخذ الاحداث
ويروي المغامرة
تفعيلا من الماضي
والواجب يقضي بالغز الى امام
وبهدم كل القوالب » .

وهذا ما فعله ، فيما بعد ، بشكل او باخر، شعراء كبار امثال سيرغي يسنين، واوغوفسكي، وتيخونوف ، وسوركوف ، واولفا برغولز ، واوهنس شيراز ، وبوريس بسترناك ، وآنا اخماتوفا ، وقسطنطين سيمونوف ، وميكولا باجان ، وطورسون زاده ، ورسول حمزاتوف، وكفور غلام ، وحميد غلام ، وغريباتشيف ، ومارشاك ، وريلسكي وسيلفا كابوتيكيان ، والكسندر تفاردوفسكي ، وغيرهم ...

وقد تميزت المرحلة التي اعقبت موت مایاكوفسكي ، وامتدت حتى اعلان الحرب العالمية الثانية ، تميزت بالنضال الدائب من اجل الملكة الثقافية والفنية في الشعر السوفياتي . وذلك لان القارىء الذي كون نفسيته وذوقه الفني ، وروضه على اشعار بوشكين ، وليرمنتوف ، وبلوك ، ومایاكوفسكي، ويسنين ، اصبح بسهولة يتبين الفوارق بين الفن الابداعي الرائع ، وبين مخلفات الفن المتقهقر السائر على عجلات بدائية .

وصار العديد من الشعراء يتجنبون المواقف الخشنة في الشعر ، ويبتعدون عن المواضيع الكبيرة التي تتطلب صب كل القوى الفكرية، لكي يرن الشعر بصوت جهير، وبحيوية فاعلة. وعمدوا الى الحوادث البسيطة يبرزونها بالاساليب البلاغية الجافة . ولكن رغم هذا الجفاف طلعت اثار شعرية غنائية الطابع الملحمي ، تمس الحياة السوفياتية مسا ديناميا فتحرك فيها الخصب الهاجع . فرأينا فلاديمير لوغوفسكي ينشر مجموعاته العديدة ومنها : « اليك اوكرانيا » و «ارباب الذهب» و « العرس » . ونشر سيمون تشيكوفاني عدة مجموعات منها « قصائد جديدة » و « ازهار الاودر » . وانبرى الكسندر بروكوفييف يغني الحب والطبيعة بمجموعته « انسياب المياه ». واصدرت الشاعرة مارغريتا اليفر ، ومكسيم ريلسكي ، وآنا اخماتوفا عدة دواوين شعرية.

واتجه فريق من الشعراء الشبان شطر المعامل والارياف ، يصف الحياة الجديدة . فحفلت الصحف السوفياتية بقصائد الشعراء: ميخائيل بيلينكو ، وسازونوف ، وصامد فرعون ، وغريباتشيف ، وياشين ، وتفاردوفسكي وغيرهم . وغصت دور النشر بدواوين الكسندر بيزمنسكي ، وتيخونوف ، وتشيباتشيف ، ومارتينوف ، واولغا برغولز ، وسيمونوف . وقد تميز انتاج هؤلاء الشعراء ، في مرحلة البناء الجديد هذه ، باكبار الدور الذي يقوم به العامل في المصنع ، والمزارع في الكولخوزات . وهذا هو الشاعر ميخائيل كازاكوف يختصر بقصيدة قصيرة بعنوان « محادثة مع عالم » ، التجربة الشعرية المعبأة ، فيقول :

« لهاث فاتر يهب من الحقول
والفجر عابق برائحة القمح
وصديقي ينطلق انطلاقا ظافرا
مرغما الطبيعة على الاستسلام
الم يثق به ميتشورين دائما ؟
الم يعلم الناس من اجله حب العلم ؟
كان القمح قد انتصب ناضجا
والكروم تكسو مرابع الغابات
وصديقي ، محول الطبيعة ، يسير
جد فخور بعمله » .

- ٣ -

وتشاء حتمية التاريخ ان تقطع حبل تطور الشعر السوفياتي على الوتيرة الآنفة الذكر. فتندلع الحرب العالمية الثانية ، فتلقي بالمجتمع السوفياتي في آتونها المستعر ، وتحمل الشعراء السوفياتيين على القيام بدورهم بوصفهم مسئولين اجتماعيا . ولهذا مر الشعر السوفياتي بما تصح تسميته بشعر الحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) . فكانت الصحف والمجلات السوفياتية تنشر الكثير من قصائد الكسي سوركوف ، ونفاردوفسكي ، وتيخونوف ، وسيمونوف ، وغيرهم . وقد اصبح الشاعر ساعتئذ ، كما وصفه الكسي سوركوف ، « شاعر الخنادق » ، يقاسم الجندي شظف الحياة ، وخطورة الوقوف في خطوط النار.

وهنا يكمن سر الطابع الملحمي الذي عاشه الشاعر ، فابدع في صياغه شعرا يعبر عن خلجات نفس الجندي المقاتل ، والمرأة المناضلة ، والمجتمع المتطور المستشرف خيوط آفاق جديدة ممرعة العطاء .

ولقد كان شعر هذه الفترة الحاسمة ايضا ، دعوة للبطولة ، والموت ، والخلود ، والحب ، والحقد ، والواجب ، والحرية . فكانت القصيدة بمثابة الرسالة الموجهة من شاعر الى مواطنيه ، تدعوهم الى الجواب المباشر. وقد خلقت الرغبة في تخليد مآثر بعض الابطال ، وتمجيد آلام الوطن ، المجال لروائع شعرية ، فولاذية الرنين ، اخاذة الجرس ، تمثلها قصيدة « فاسيلي تيوركين » لالكسندر تفاردوفسكي ، التي تعد بحق اهم حدث

الكسندر تفاردوفسكي

شعري في ما سمي بشعر الحرب .

وتعد قصيدة « فاسيلي تيوركين » التعبير الاتم عن الطابع الروسي من خلال نفسيته ومسلكه العام . وقد صور فيها الشاعر شخصية الجندي المقاتل والمؤاسي في وقت واحد . فهو يقتحم الخنادق وخطوط النار ، ويداعب الجنود ، ويحدثهم عن النصر الاكيد ، ويشاطرهم الاسى والحزن على من مات من الرفاق ، والحنين الى المنازل والاحباب . وبمقدار ما كانت تطول الحرب ، كان « تيوركين » يزداد اصرارا على متابعتها حتى النصر ، وتزداد نبراته غنائية شفافة تنساب في كيان الجنود المقاتلين ، وتبعث فيهم الشجاعة والعزاء .

وفي ما بين اواخر الحرب العالمية الثانية ، وبين مرحلة تضميد الجراح ، كان على الشعر السوفياتي ان يعاني الكثير من «عبادة الشخصية» التي راحت تسوق رهطا من الشعراء والفنانين والادباء بعصا الكبح الباغية ، وتقيم للفن قوالب اصطناعية واقفالا مكبلة باكثر من لجام .

ولم ينهض الشعر من كبوته الا عقب انقشاع غيوم هذا الجو القاتم ، حيث اخذ الشعراء يبحثون بحرية عن مواضيع جديدة ، ويغوصون في مجاهل النفس البشرية محاولين الكشف عن رغباتها وامالها . وهنا طلع ما تصح تسميته بالشعر الاجتماعي ، والوجداني المصيري ، متمثلا ايضا بالرائد الكبير الكسندر تفاردوفسكي ، الذي راح ينظم اشعارا يتحدث فيها عن الزمن والمستقبل. وتعد قصيدته : « بعيدا ، بعيدا جدا » الانموذج الامثل لهذه المرحلة التي فتحت امام الشاعر ابعادا جديدة ، فانبرى يقوم بسياحتين في المدى الشاسع ، وفي الزمن معا .

لقد ساح الشاعر في المدى الشاسع ، سياحة واقعية ، وساح في الزمن عبر تخيلاته وذكرياته ونوقه المستقبلي . وعلى ضجيج عجلات القطارات تخنصر المسافات ، يعبر تفاردوفسكي بقصيدته « بعيدا ، بعيدا جدا » عن اجوائه النفسية ، شاملا المجتمع السوفياتي ، بحيث نجد عالم الواقع الفسيح مع ما فيه من مناقشات وتضارب اراء ، وثرثرة مسافرين ، وهمس عشاق ، وصياح سائقين في الدروب الموحلة يحيون جميعهم النهر الدائم الانسياب جبارا .

ولم يتوقف ركب الشعر السوفياتي عند هذه الافاق ، بل راح يعمق طابع الشخصية الايجابية في الشعر الغنائي الملحمي ، ثم يمتدها الى افاق اخرى ، منها ما هو جديد كل الجدة ، ومنها ما له جذوره الضاربة عميقا في التراث الشعري الروسي العظيم .

اما الجديد ، فهو الشعر الفلسفي ، وهو لعمري ضرب من الشعر جد صعب ، وهو يذكر نعداها بتشكيلة من الحكم المبتذلة التي تستخدم غالبا للتعبير عن هذه الافكار.

ولكي لا يقع الشاعر الفيلسوف في حمأة التفاهة ، يتجه غالبا شطر حقول اخرى من الثقافة ، دون ان يتمكن دائما من الدفاع ضد تأثيرها . وقد ظهرت في هذا المجال قصائد نثرية تذكر بالنصوص الفلسفية الجامدة . وقد حاول بعض الشعراء ايضا ان يبتدعوا ما سمي « بالشعر العلمي » .

الا ان هذا الضرب من الشعر اوجب بالضروره على الشاعر ان يعمق ثقافته الى الحد الذي تصح فيه تسميته بالرجل الموسوعي . والا فما قيمة الشاعر الذي يود معالجة قضايا الزمن والمدى ، والحياة ، والتطور ، اذا لم يكن على قسط معين من العلم والمعارف الاساسية ؟

ولكن برغم ما في هذا اللون الشعري من صعاب ، لمعت اسماء شعراء أكفاء ، تمكنوا من ان يلجوا هذا الباب مرفوعي الهام ، وفي طليعتهم : بافل انطوكولسكي ، واركادي كوليشوف ، وافغيني فينوكوروف .

ففي المقدمة الرائعة التي كتبها الشاعر انطولولسكي لديوانه المسمى «البعد الرابع» يشير الى الفارق القائم بين الفكرة الشعرية وبين المفهوم العلمي للزمن ، فيقول : « عندما يقول الناس « الزمن هو المال » فانهم يفرطون في تعظيم المال . ان كل ذهب العالم لا يساوي لحظة واحدة من امتداد حياة ... » . لكن الرياضيين يؤكدون شيئا اخر . فالزمن بالنسبة لهم هو نظام قياسي ومفهوم نسبي ، فلا هو بسحر ولا بقدر ، وانما هو شيء ما ، يمكن قياسه وفق حساب مقبول ارضيا ، وكونيا ، او أي حساب اخر » .

ويعتبر انطوكولسكي ان اصناف الشعر هي مفاهيم الزمن بصفة كونها « قدرا » او « زمنا ممتدا عبر الانسان » ، بحيث يمكن للقارىء ان يكشف في كل لحظه هذا المعنى البعيد المنال ، والفريد ، الذي يجعل من الابيات الشعرية شعرا حقا . وان هذا المعنى الواقعي للزمن يجب تقديره ثم اعادة تقديره دائما ، لان وتيرة الزمن يمكن ان تكون سريعة او بطيئة ، قاسية او رؤوما ، ساكنة او بطولية ...

ويضيف انطوكولسكي ايضا ، ان ليس بمقدور الشاعر ان يطرح هذه المسائل . واذا ما استطاع ان يربطها ربطا وثيقا بالانفعالات البشرية ، وادخالها في عالم البطل الداخلي ، يصبح بامكاننا عندئذ التحدث عن غنى المحتوى الغنائي في شعره الفلسفي .

اما اركادي كوليشوف ، فهو من خلال كتابه المسمى « الكتاب الجديد » يحدثنا في قصيدته « على نصف مليون كيلومتر » ، عن الماضي والحاضر ، دون ان يحمل شعره الكثير من الرموز المعقدة والحذلقة اللغوية واللفظية.

وعوضا عن التفجع القطوب على قصر الوجود البشري ، وعلى بهجة الطفولة التي ذهبت بلا عودة ، وبدلا من الاعلانات التجريدية المشيرة الى مستقبل بدون غيوم مثلا ، وغير ذلك من الاصباغ الشعرية ، يقدم لوحة

مليئة بالافكار الحية والجديدة ، حول المدى والزمن ، والسرعة ، بدون ان يجرد هـذه المداميك الفنية الحديثة مما هو متصل بالحس البشري ازاء الطبيعة ، من مثل « تنبؤ البلبل» هذا النبي المهاجر » ، و « صوت الشبابة » و « دعوة الغابات القديمة » .

لقد احتفظ الشاعر بذاكرته التي اعادته الى ايام طفولته ، فاستطاع ، دونما تصنع ، ان يجمع جمال الطبيعة وحرارة العواطف البشرية البسيطة بالمعطيات العلمية الراهنة التي يعرفها ويسمع بها عامة الناس اليوم .

وحتى في مجال تحدثه عن المرأة التي يحبها ، لم يسمه عن بال كوليشوف ان يقول : « نحن نعيش عيشة النقيضين ، مثل عالم ونقيضه بين الكواكب » ، فهو اذن يحاول دائما استخراج نتائج شعرية ، وافكار جديدة عن العالم ، هي افكار علمية وفلسفية واجتماعية ، مدركة التحولات الكبرى التي حصلت وتحصل في المجتمع الكبير فيحسب ان وجود الانسان في الارض يمتد عبر اضعاف ما هو بالواقع ، فيقول : « القرن العشرون هو الذي يعد سني حياتي » و « الذرة التي حررها قرننا المجنح » ، مؤكدا لنا ان التقاء الشعر بالعلم ممكن ، وان عظمة العلم انما هي عظمة الانسان ، وان الاكتشافات العلمية لا توسع عالم الناس الذهني وحسب ، وانما توسع ايضا عالمهم الشعري .

واما افغيني فينوكوروف ، فقد اصدر عدة مجموعات شعرية تدور حول هذه القضايا الحديثة في الشعر ، ومنها « الكلمة » التي نشرت عام ١٩٦٢ ، و « الموسيقى » وهي عبارة عن شعر طليق حاول فيه الشاعر الاستعاضة عن النغم بالمعاني الفلسفية العميقة .

وخلال مناقشة اعقبت نشر « الموسيقى » عرض فينوكوروف وجهة نظره فقال بان المجموعة هذه تشكل باكثريتها تجربة في حقل الشعر المتخلي عن الوزن والبحر . واذا ما كنت اسميتها « موسيقى » برغم كون هذه الاشعار لا تمثل ايا من الخصائص الظاهرة في الموسيقى الشعرية ، فذلك لانني اردت ان اشير الى معناها الموسيقي الداخلي ، اذا جاز التعبير . غير ان هذه « الموسيقى » الداخلية، يصعب تبنيها لانها تغرق في لجة الرمز البعيد الاغوار ، بحيث يخيل ان الشاعر مقتنع بازدواجية بطله ، الانسان . وهو يتساءل بلسان بطله عن « غلامه » المنظور ، القليل الاهمية ، والذي ليس بالحقيقة سوى «الرجل الثاني» ، « اما « الرجل الاول » فكيف اقدر على ادراكه في ذاتي ؟ » . وذلك لان «الرجل الاول» فيه تولد الموسيقى الداخلية للعواطف، وموسيقى العلاقات العميقة التي تربط الانسان بالعالم الحسي الفسيح (١) .

ويتبين لنا مما تقدم ، ان الشعر الفلسفي من اصعب ضروب الشعر . وانه من الطبيعي اذن ، ان تكون له خصائصه ومفاجآته المثيرة حينا ، والمقوتة حينا اخر ، وبخاصة تلك التي تنحدر به الى جادة النثر التافه الذي لا يثبت للمعالجة النقدية الفنية الواعية .

— ٤ —

ومن الفنون الشعرية التي تفتحت في الشعر السوفياتي الحديث ، شعر الغزل . لقد رقد هذا الشعر رقودا خيل معه أن الغزل محرم في الاتحاد السوفياتي ، او يكاد .

والحق ، ان المراحل الصعبة التي مر بها الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩١٧ ، لم تفسح المجال رحيبا للشعراء لكي يصفحوا عن لواعج الحب والهيام في نفوسهم . حتى النساء الشاعرات في الفترة الممتدة بين ١٩٣٠ وبين ١٩٤٥ كن يشاطرن الشعراء الرجال الشعور الوطني ، وتذوق المواضيع المصيرية الكبرى. ولم يأخذ شعر الغزل سبيله بطلاقة الى صفحات المجلات والصحف السوفياتية الا عقب عام ١٩٥٦ — عام المؤتمر العشرين — . وعندئذ رأينا هذا الشعر يسعى في الناس سعيه الطبيعي ، حاملا لواعج الحب للمرأة التي تشكل نصف المجتمع ، وحاملا في الوقت نفسه صوت المرأة التي رغبت عن ان تكون « امرأة لا غير » . ورأينا شاعرات شابات يقفن في النصف الشعري يجاهرن بالحب ، ينظمن للعواطف المشبوبة ، وفي طليعتهن : بللا احمادولينا ، ويونامورينس ، وريما كازاكوفا ، وتامارا جيرمونسكايا ، ولينا كوستنكو ، و ...

اما شعراء الغزل الشبان ، فهم كثر ايضا، ويجيء في طليعتهم : افغيني افتوشنكو ، وفاسيلي فيدوروف ، وادواردس ميزلايتس وغيرهم .

لقد اخذ نجم افتوشنكو يسطع في سماء الشعر السوفياتي عام ١٩٥٢ عندما نشر مجموعته الشعرية الاولى « رواد المستقبل » ثم اتبعها على التوالي بمجموعات عديدة منها « الثلجة الثالثة » و « وعد » و « قوس وقيثارة » و « قصائد السنوات المبعثرة » . ولقد اثارت قصائد افتوشنكو الكثير من النقد والمناقشات لما تميزت به من جرأة وتجديد . وغنائية تمس اوتار القلب ، وتعزف لحن حنين الجنس . ومن هنا سر شعبيتها في صفوف الجيل السوفياتي الجديد الناهد الى الحياة بكل ما فيها من جمالات ومتعة . والى القارىء انموذج من شعره ، قصيدته « الشجرة » :

« اكتسى الغصن بالشعر
على عصف الرياح
فقلت له :
رد لي هذا الشعر
اني اريده
اما المارة
فقد نظروا الينا دهشين .
وراحت الشجرة على عصف الرياح
تهز قصيدتها

(١) اشار الى ذلك الكاتب ادولف اوربان في مقال بعنوان « نشاطية الانسان » .

افتوشنكو

سيمونوف

فلا داع للاصرار
فالانصرف اجدى
ولكن ، اعترف ، افلا تتذكر ؟
والله صحيح ...
ولكن سأكتب لك غدا
افتخشى ان تنخدع ؟
الشعر ليس على الفصن بثقيل
ولسوف اكتب ، صدقني ، لدن نشاء
اشعارا
لكل الاشجار .
ثم ، يبقى ان نظل اصدقاء
وانا ، هل بمقدوري ان انساك ؟
طيلة العمر
وعلى مفارق الدروب
سأكون شجرة هناك
تهز قصيدتها في وجه الرياح
وسابتسم
وسأذهب .... »

اما فاسيلي فيدوروف ، فقد تمكن بمثابرته على النظم من أن يخلق عالما شعريا فريدا ، قوامه الصور الخارقة الفريدة الطابع . وقد نشر مجموعته الاولى عام ١٩٤٧ بعنوان « لقد باعوا فينوس » ، فخلق فيها نماذج من المرأة الروسية ، ثم اتبعها بقصيدة « اباء صعب »» ومجموعة « ليست شمالا اكثر من القلب » . وفي مجموعته المسماة « كتاب حب » وهي ثمرة جهود سنين من الخلق الفني ، فتح الشاعر قلبه للقارىء مفصحا عما يكنه من حب للجمال وللمرأة . فلنسمعه في بعض مقطوعاته الغنائية ، يناجي حبيبته ، قائلا في قصيدته « القلوب » :

اذا ما عجزنا عن كسب القلوب البشرية
فلنحذر مغبة فعلتنا
ان العدو ليترصدها .
ان القلوب لمرتفعات
لا تسلح للاعداء .
. . . . . .
فيا ايتها المرأة
يا زهرة الدنيا
المطرودة من جنة عدن
ان الجنة لقائمة فيك

ميزالايتيس

اني لاذكر
ص التوراة
فافول : أنا الخاطىء الكبير
ولست بالقديس بطرس
البواب الساحر
احب المفاتيح الثمينة
فاتبع صاحب المفاتيح .
لقد اكتشف قانون الحب
وانت تغريننى به
لا بتفاحة ، فحذار ، شديدة الاخضرار
بل بتفاحتين ناضجتين
ان نفسي لفي سأم
وثمة عطش محرق
يحرقني .. ايتها المرأة
يا نبعة الحياة
اقتلي ظمأي ، اني اتألم
وانني لن ارتوي !

وهذا مقطع من قصيدته « اليها » ، فهو يقول :

الخلاصة ، الامر واضح :
الحياة جميلة
اليس روح الحياة
حب الكائنات ؟
حبه لها ... ،
هذه النعومة التي
لا يمسها سوى القلب .
وتصبح كل حكمته ، حكمة المحب
متعلقة بقشة ضئيلة
وبخيط من ضياء .
. . . . . .
ونهرق الدماء
وتبكي الارامل
وما يهددنا من غيوم
انما هو اخطاء
ومآس كئيبة
ينبغي الا تكون .
اما الجوهر
فهو ان الحياة هكذا ...
حب الكائنات
« وحبها له ... » !
ولو انني كنت الها
لم اكن لافعل
سوى ان اخلق المرأة .
ولو انني كنت مثالا
لكنت حفرت تمثالها
في الصخور الشاهقة .
واذا ما كنت مولعا بالالوان
فسأرسم المرأة
المرأة التي لم اعرفها
والتي لما تصبح زوجتي
. . . . . .
انني اجهل ما يجب ان اعمل
وانت يا جميلتي
تأخذين بمجامع لبي
ان نصوع نهديك ليبهرني
وجمالهما الكامل
عبر ما لهما من حزم واستدارة
ليجتذب اللمس الرفيق .
ان الواحد منهما لمبتعد قليلا عن الاخر
كأنه يحسده على جماله .
واني لاجهل ماذا افعل
واجهل ايضا السبب
الذي من اجله ، انحني

معذبــو الارض

تأليف فرانتز فانون

طبعة جديدة

ترجمة الدكتور سامي الدروبي والدكتور جمال الاتاسي

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ص.ب : ١٨١٣ بيروت

فتحط شفاي تارة على هذا
وتارة على ذاك .
. . . . . .
وتقولين لي ، فريسة التأثر
« لا تخدعني »
فاطمئني
سأبقى امينا على عهدك .
ولكن ، كيف يا حبيبتي
استطيع ان ابوح .
بأن اجمل من في الدنيا
انت ! !

...

وهذا هو الشاعر ادواردس ميزلانيس ، الذي بدأ ينظم وهو في العاشرة من عمره . وقد ظهرت اولى مجموعاته الشعرية عام ١٩٤٣ بعنوان « قصائد غنائية » ، ثم اصدر مجموعة بعنوان «الانسان» و «الابد والحياة» وغيرها .

وتعتبر مجموعته « الانسان » من ابدع ما صدر في الشعر السوفياتي المعاصر. فهي ذات ابعاد رمزية غير فاقدة نبض الحياة وقد حاول الشاعر ان يؤكد فيها بان قلب الانسان المعاصر هو اشبه شيء بالرادار المترصد مصادر الحركات باطلاق . ولهذا وجب ان يكون ملحمي التطلع والمدارك،يقف على خط الارادة البشرية الكبرى ، يناضل من اجل الحياة ، عبر تفتحه على كل جمالاتها .

وقد تفتح الشاعر نفسه على كل هذه الجوانب الوجودية المعطاء ، فنظم الشعر للاقمار الاصطناعية الساعية لكشف استار الغيوب ، ونظم للربيع ، والارض ، والصباح، ونظم للمرأة ، لشفاهها ، ولعينيها ، وللحب

بروكوفييف

المتجدد نجد الحياة ذابها . والى القارىء مقطع من قصيدته الرائعة « النساء » ،يقول:

هكذا انت ، في فرارة افكاري :
لازورد فدسي ..
شفافية ، وصفاء
وعبر شفافية الالوان العميقة
المدهشة الصفاء
تقفين ، واطياف الاحلام
تمخر بحر عينيك .
وتحملين الطفل بين يديك
لكي برى الدرب الضارب في الغابة
عبر الضباب المشع
وعلى وجهك ثمة رفيقتان :
السعادة ، والطمأنينة
رفيقتا كل امرأة مستعدة لتنالم
بانتظار الكلمة التي
يتمتم بها الطفل ...
يناغيك اول ما يناغي
يا لاباء المرأة ، الام
انها نهب الدنيا الطفوله
وهكذا في كل فجر
يقدم الشمس للدنيا
شعاعها الاول ،
طفل يوم على الارض جديد .
فالذي يستطيع ان يزن بكفه
حفنة غبار جد دقيق
لقادر ان يزن ثقل العالم باسره .
وننيجسين من الوان ر«فابيل »
وبكف واحدة بهيمنين على التراب والبذار !
هكذا انت في فرارة افكاري ... !

...

تلكم هي المراحل الطويلة والشاقة التي مر بها الشعر السوفياتي ، عبر نصف قرن ، وانها لمراحل مخصاب ، كما راينا ، برغم ما تصدى لركب هذا الشعر من عقبات ، منها ما هو حتمي ، ومنها ما فرضه ظرف طارىء مر المذاق ، كالح الاثر .

واليوم ، بعدما انفتحت ابواب الادب والفن السوفياتي على مصاريعها بوجه ازهار الفنون المتفتحة في العديد من بقاع الدنيا ، فان الفن السوفياتي باطلاق ، والشعر منه على الاخص ، سيجد سبيل التفاعل المعطاء مع تيارات الشعر العالمي ، يؤثر فيها ويتاثر بها ، عبر عملية خلق وابداع ، تعد ولا ريب، باكبر العطاء واروعه .

بيروت — **ميشال سليمان**

صدر حديثا :

الاوضاع التشريعية في البلدان العربية

للدكتور صبحي المحمصاني

القانون الدولي العربي — **للاستاذ محمود كامل**

معالم الحياة العربية الجديدة (الطبعة الخامسة)
للدكتور منيف الرزاز

دار العلم للملايين — ص.ب. : ١٠٨٥ ـ بيروت

اول كتاب من نوعه

الوسائل التعليمية

للاستاذين بشير الكلوب وسعود الجلاد

دار العلم للملايين

ص.ب. : ١٠٨٥ ـ بيروت